

مبدأ المساواة والتكافؤ في وحدة المنشأ



يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ إِنَّ أَعْلَىٰ عِلْمٍ خَيْرٌ﴾ (الحجرات / 13). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَفِكُمْ﴾ (الرُّوم / 21). الأساس المهم والقاعدة الأساسية التي يُبنى عليها المجتمع الإسلامي هي الإيمان بوحدة المنشأ البشري، وتعامل الشريعة والسلطة والأخلاق مع أفراد المجتمع على هذا الأساس. وإذا كان هذا هو منهج القرآن ونظرته للإنسان فإنَّ المشكلة الكبرى التي تعاني منها الإنسانية اليوم هي مشكلة الاستعلاء العنصري، والصراعات القومية بين بني الإنسان، ومما يزيد المشكلة تعقيداً وتأزماً أنَّ هذه المفاهيم سلكت أساساً لصنع الفوارق الطبقيّة والعنصيات العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد، وبين الشعوب والأُمَم، ثمَّ زُطِّرت هذه المفاهيم الخاطئة، وبُنيت على أساسها دول ومفاهيم اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية.. إلخ. ويدافع من هذه المفاهيم والنظريات البعيدة عن مقاييس العلم والعقل والأخلاق، خاضت البشرية الحروب والصراعات الدموية الرهيبة، حروب الاحتلال والاستعباد والسيطرة، ومورس الاضطهاد العنصري والإبادة العرقية في عصر يدَّعي أجياله أنَّها تعيش في عصر العلم والمعرفة، وإنَّ أبسط قواعد العلم البيولوجية والسيكولوجية ومقاييس العقل تتحدَّث عن النوع الإنساني كإنسان، كما تتحدَّث الدراسات العلمية الأخرى عن أنواع الأحياء المُصاحبة للإنسان على هذه الأرض بأنَّ كلَّ نوع له خصائصه المشتركة بين أفرادهِ. والقرآن يثبت الحقيقة العلمية والأخلاقية والاجتماعية للنوع البشري، ويؤكد أنَّ للناس أنَّهُم أبناء آدم، وأنَّهُم نشأوا من منشأ واحد، ولا فرق بينهم في التكوين البشري، وليس ما يشاهدونه من فوارق في اللغة واللون إلاَّ آية من آيات عظمة الخالق، ولا دخل لها في الأصل الإنساني، ولا يصح أن تكون اللغة أو اللون أو الجغرافية، أو ما يكسبه الإنسان من مال أو سلطة أو جاه.. إلخ سبباً للاختلاف العنصري والعنصري والاثني، فضلاً عن اعتبارها مقياساً للتعالى والتسلُّط والتمييز العنصري بين أبناء آدم، أو أساساً متميزاً للدولة والسياسة. والقرآن سجَّل هذه الحقيقة وخاطب بها العقل البشري.. خاطبه بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (الرحمن / 22).

وعندما نريد فهم هذه القضية في ثقافة القرآن وشريعته وتقييمه العلمي للأصل البشري سنجدّه في كل مخاطبة وتشريع وتعريف يتحدّث عن الإنسان كنوع يشترك أفرادُه جميعاً بالصفة البشرية التي لا تقبل التجزئة العنصرية والتمييز العرقي والاستعلاء الإثني، فتراه يخاطب الإنسان في سبع آيات بقوله: يَا بَنِي آدَمَ لِيَفْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ آدَمَ، قَالَ تَعَالَى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس/ 60-61). وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (الإسراء/ 70). يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف/ 31). يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الأعراف/ 35-36).

ويوضح القرآن للإنسان وحدة الأصل والمنشأ، ويرفض التمييز العنصري المفتعل، واتّخاذه أساساً ومقياساً للتفاضل.. سجّل هذا المبدأ العلمي بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/ 13). ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمٌ رَقِيبًا﴾ (النساء/ 1). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَفِكُرُون﴾ (الروم/ 21).

القرآن في هذه الآيات يريد أن يُفهِّم الإنسان أنَّ الناس - رجالاً ونساءً - خُلِقوا من نفسٍ واحدةٍ، وإنَّ مقياس التفاضل بينهم هو (التقوى).. أي الاستقامة السلوكية والفكرية، فخيرهم خيرهم في سلوكه وفكره وعمله، والقرآن في مخاطبته للناس بأنَّهم أبناء آدم، إنَّما يريد أن يرسِّي قواعد الأخوة الإنسانية بين الناس الذين هم أخوة، وأبوهم آدم (عليه السلام).. إنَّه يريد أن يشعرهم ويوحِّسَّهم بذلك لئلا يتعالى البعض على البعض، أو يستغله أو يحتقر وجوده؛ لذلك وضَّح للناس أنَّ الخالق العظيم كرَّم بني آدم جميعاً، وعليهم أن يجعلوا هذا التكریم سلوكاً عاماً فيما بينهم، كأخوة متساويين في المنشأ وفي استحقاق التكریم، إنَّهم كرَّموا أنفسهم بالالتزام بمنهج الحقِّ والخير والهدى الذي جاءهم من خالق الوجود.

ومما يزيد المفهوم إيضاحاً وتأكيذاً هو إنَّ استعمال الخطاب بِـيَا بـِذِي آدَمَ.. جاء في أربع آيات متقاربة بعد الحديث عن خلق آدم وقصته مع إبليس في أوليات سورة الأعراف، فخطب الناس جميعاً بأبناء آدم. ويتحدّث القرآن عن الفروق الفردية في الناس والتفاوت في المستوى العقلي والجسمي والنفسي والإمكان البشري.. يتحدّث عنه ويوضّحه بأنّه تعبير عن حكمة الله في الخلق، وإنّه من أُسُس التكامل في بناء المجتمع البشري، لذّلا يُفسّره البعض بالاستعلاء والتفوق النوعي، فالمجتمع يحتاج بناؤه إلى مختلف الطاقات والكفاءات والإمكانات البشرية لسدّ حاجاته في مجال إنتاج الغذاء والدواء والبناء واللباس، وتوفير الاختصاصات العلمية والعملية المختلفة.. إلخ. قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ بِعِزِّهِمْ ۚ فَوَقَّ بِعِزِّهِ دَرَجَاتٍ لِّيَتَذَكَّرَ فِيهَا مِمَّا بَعَثْنَا فِي الْأَنْفُسِ مِنْ أَمْرِ غَيْرٍ ۚ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ خَبِيرٌ مِمَّا يَذْكُرُونَ﴾ (الزخرف/ 32).